عالية ممدوح

مقبرة الصور

الى « ج »

يستعد لاشعال شمعة بعد انقطاع التيار الكهربائي ، وكل شيء من حوله رطب ، غابة الصور الميتة تحيطه ، ورائحة الغرفة كانت اشبه برائحة حطب تعفن واحترق ، والات للتصوير كبيرة وصغيرة ، وكاميرات قديمة موضوعه على طاولة تشرح العهد الاول للصور البدائية، وبعض الاوراق وزعها على الجدران ، رسمها بيده لانه لم يكن بقادر على تصويرها ألبتة .

وكان وجه الرجل سخيا بهذه المسرة الصغيرة ، التصوير . عيناه شاسعتان لا تستقران في مكان . وشاباره متصلان بلحيته مع بعض فراغ في اعلى الخد ، وشفتاه ملسوعتان منفرجتان على اسنان متناسقة كبيرة بيضاء جميلة . كان وجهه يذكر بوجوه صماليك اسبانيا القديمة، او مناضلي اميركا اللاتينية ، لكن الذعر كان يتوارى من بدنه وحركة عينيه عندما يمسك الة التصوير ، ويتجنب اطلاق الاوامر .

ظلت الشمعة تلقي ظلالا مختلجة على بعض الصور ، فتبرز الاذان كبيرة ، والانوف ممطوطة ، والعيون جامدة ، والشفاه مقلوبة ، وتظل هذه الخطوط عارضة نفسها حتى يهب الضوء فجاة في الغرفة وترتعد كل الموجودات دفعة واحدة .

(لماذا تأخرتم ايها الرفاق في الحضور ؟)

ذات يوم ، قال له احد الرفاق :

ـ عندما تصورني فانت تدخلني في الفن وتخرجني من الحياة (ولكن) .

ـ صورك تغريني بالتجمد ، وانا أكره ان اذوب هكذا .

(لكني احب وجوهكم ، ابدانكم ، ذعركم .. و ..)

ـ في الصور يجد المرء نفسه وحيدا ، حتى لو كان داخل فيلق من الجند والاسرى والجنرالات .

كان يعاند هوسه بمزيد من الاوضاع للوجه / والعيون والايدي الاصابع / الملابس / الانحناء / والصمت ، الضحك / التجلـــى / الحلم / الخشونة .

(عندما أصوركم أراكم معبودين اكثر) ظـل يحلم باحلامهم ، لكنه لم يقف عند هذا الحد ، صور المرأة التي يحب ، وصرخت به قائلة :

ـ انك تضجرني ، تك ، تك .

ـ اغضبي ، احب الصور الغاضبة .

وعندما يأخذها من يدها وهي لا تقاوم ، يضغط قليلا ثم ينزلها على السرير امامه ، يرفع ثوبها ، ينحسر الثوب عن ساقين سمراوين ، يرفع احدى الساقين الى اعلى ، ويترك الاخرى مستقيمة ، كانـت المرأة تبزغ في تلك اللحظة ، والرجل يتناول آلته بسرعة قبـل ان نستولي على المرأة نوبة سأم جديدة .

(الصيحة الاولى لا تشبه الصيحة الاخيرة ، اصرخي آلان ، بوجعـي .)

ـ انك تتحدث بلساني في الصور ، تريد ان تحل الفاز جسدي، فماذا سيبقى لي ، كلما صورتني أحسست بالتحنيط ، وانت تعرف ذلك تماما .

هذه الكبرياء ، وتلك الشهية تتبددان من داخل رأسه ، الهمس الكتوم ، وصوت العويل ، وشحوب الوجوه ، ورعب الموت ، بعد كل هذا الايحاء ، الا تكفي ان تكون الصور فضيحة ايضا ؟

كانوا يتنابون على دعوته في الاعراس والحفلات والمواليـــد ، والمناسبات ، في الكوارث ، والصواعق ، والمفاجات ، لكن بعـــض الاستفاتات ما كانت لتصور ، ولما كانت آلته قادرة في بعض الاحيـان على التصوير السريع فقد كان يدخل في نوبة من الكآبة .

لم يجد حتى الان الدور الذي يلائمه ، فلم يكن حفيد فنان ، كان التصوير والآلات والورق والظلمة والحماس الذي يصاحب القلب والمفاجأة من لعنات بعض الوجوه ، واشمئزاز البعض الاخر ، واللعب التي تهب نفسها وكل مظاهر هذا الكرم ، التصوير : انه كالغريـزة . لما أخذه والده الى حديقة الحيوان ، وكان عمره ثماني سنوات ، رأى الاسود داخل اقفاص حديدية عالية وقذرة تماما . كانت اللبوءات في الداخل ، والاسود في الخارج وتخرج اللبؤة بخيلاء وتتمسح بالاسد ، الذي يظل عابس الوجه على الدوام . احس ان اللبؤة كانت تشـعر بالذنب قليلا ، والاسد كان يعاني من الوهن . لكن حركة الاســد كانت مريعة ، انه يدور ويدور في حيز ضيق جدا لا يتسع لاهوائـه ولقدميه ، وظل رأس الطفل يدور ويدور مع كل حركة من حركاته ، كان يرى نفسه اسدا داخل هذا القفص . وصرخ قليلا ثم هرب الى الشارع . في اليوم التالي اخبره والده قصة الاسد الذي مات كمدا ، بكى كما لو ان والده مات ، ومنذ ذلك التاريخ ناضل طويلا كـــي يحتفظ باحساسه ازاء الاحياء كي لا يموتوا .

لكن هذه الذكريات الغضة مجرد اغراءات تدوخه ، كان يتقبل التهاني بصوره وحده ، وكلما التفت في الغرفة خشي ان يسمع عويل احداهـا .

يوم ذهب الى المخيمات ، كانت الكاميرا على كتفه ، ووجهه لا يحمل أي اسف او مرارة ، لقد كان هناك من اجل الموت فقط ، صور اشلاء الفدائيين ، وبحث عن الحكمة من جراء هذه الصور .

لم يكن يفكر بالموت ، ولم يكن يخشاه ، كان الخطر الوحيـد الذي يخافه ان تأتي الصور قريبة من الغموض .

في تلك اللحظات كان يفكر ، متى يتبول الفدائي . وكيف ، وفي خبث ونظرف كان يمسك آلته ويكاد يرميها قائلا : (أريد احدا يصور ما افكر به) .

عندما كانت الطائرات تقصف في الجنوب ، والفتيان يحركون ابهامهم للضرب كان هو يتجول في وجوههم ، وكانت الطبيعة كتومة الى حد الحياء . ظل يصور ويصور ، ليالي ونهارات ، الاضلاع المهشمة ، والرؤوس المحطمة ، والابدان المثقوبة ، والافواه المطفاه ، والاصابع المتورمة ، الا انه تردد في تصوير احشائهم ، كان يعلم ان هذا التردد قد اتاح له الانفصال الجديد عنهم ، امام تلك الابدان المصفحـــة

بالشمس ، الهادرة بالنبل ، كانت ترتج آلته عائدة الى كتفه تحت وقع نبضهم . وهو يصغي الى صراخ اولئك المحاصرين في الكنائس والجوامع والحارات والشوارع . كانت جميع الصور لا ترضيه في تلك اللحظات ، الا انه صور ، كما لو انه كان يحارب ، وكان يصرخ من بين مئات الصور تلك : (هذا احتيال) .

(ان الاتكال على حل الالغاز لا يكفي في الوقت الحاضر) . لقد تعرف على نساء ورجال عديدين في كل سفراته ، في ارتيريا قالت له صبية زنجية حرة ورائعة ، عندما اخذ لها مجموعة من الصور :

ـ انت كئيب ، تتصور سعادتك في لحظة اخذك للصور ، وسعادتك بائخة في نظري .

لم يرد ، وانما صورها ايضا وهي تتحدث .

ردت عليه بنزق :

ـ اراك مثل الاخرين الذين يصادقون الزنوج وهم يؤمنون بالتميز العنصري ، صورنا ، صورنا فماذا يهم ، اننا لا نتملق هذا الاحساس بكوننا ما زلنا احياء .

يتجول في الغرفة قليلا ، يرفع بعض الصور من حوله . (في الصور لا تستطيع تميز الاخيار جيدا) .

(لو مت قبلك تعرف على غيري فورا ، ولكن لا تكلفها ذلك الوقت في الاصغاء والانتظار .)

يقرأ ذلك على أغلفة بعض الصور .

يسند ظهره على الجدار ، وينظر الى نفسه طويلا في المرآة ، رجل في الثلاثين ، هذه مخلوقاته ، وهو لا يسمع اوجاعها ، يتمشى على مهل ، ورأسه يبدأ بالاهتزاز ، ووجهه اكتسى بهذا النوع من الخوف الغامض ، كأنه يهرب من مطاردة ، منظار معطوب علق على الحائط كتب تحته :

(من يرى الان جيدا يصاب بالعمى فورا)

وبندقية فارغة ، الصقت تحتها ورقة حمراء مكتوب عليها بخط دموي حار :

(لو دفنت معي لكان التنبؤ بما سيحل ادق) .

والسرير الحديدي الاسود العتيق كان يفصل الغرفة قسمين . والحيز الصغير المتبقي من الغرفة يوحي اليه الان انه داخل سجن ،

كانت تفوح من بعض الصور رائحة عرق قديم ، ودم مخثر ، وبصاق كثيف . وبول حيواني .

(هؤلاء وهبتهم للاله .)

يدخل المطبخ ويغيب قليلا ، يحضر كأسين ، وزجاجة نبيذ ، يصب في الكأسين معا .

يجلس على الارض ، يدفع بعض الصور ، يمدد ساقيه يرفع الكأسين معا ، يسكب بعض القطرات في فم المرأة الحاضرة في الصورة، يتذكر انه يعرفها جيدا .

(انت ميتة الان)

(انني حي بعدك)

ولعنة الصور تتكدس في الذاكرة وعلى الارض ، لقد غير بعضهم مكان اقامته ، وتنكر الاخرون باسماء مستعارة ، وثياب جديدة ، ولحق البعض الاخر بالمخبرين ، وحصوروا جميعا بالكاميرا ، لقد اخذت الصور الان الاقتراب من التنكر ، وهو يراهم الان وكأنه يراهم للمرة الاخيرة ، كان تأثيرهم نوعا من التبشير ، فهؤلاء استطاعوا فعل كل شيء وهو رجل اظهر لهم التفهم والادراك فحسب .

يمسك بلحيته قليلا ، والنبيذ عتيق ، ولكن باستطاعته ان يبتلع عدة زجاجات منه ، وليل الغرفة يبدو جافا ، وكل نوغل في احشائها كان يشعره بالاختناق .

صور ، صور ، بكل الاحجام والاوضاع ، جوارب عنيقة ، واحذيه بنصف كعب ، وثياب داخلية تحت السرير ، اغطية للرأس ، وامشاط مكسورة الحواف ، وزجاجات وكؤوس فارغة .

كان يجلس قريبا من السرير ، غير بعيد عنهم ، يمتد صمت الصور ، ويخلف لديه شعورا بالشلل ، ها هو وجها لوجه امام مخلوقاته ، يغتم طويلا عندما لا يسمع أي انين ، يفتح عينيه على اتساعهما ، ويعب كأسه الى اخرها ثم يتناول الثانية ايضا ، يشرق في وجهه هذا الاكتراث ، يرفع رأسه قليلا الى أعلى ، الى اسفل ، يتمتم كالحالم :

(ها انا اشرب نخبكم وحدي !)

اراد ان يصرخ ، ان يكذب ويصدق هنا على الارض ، لا في الصور، ولا مع الصور .

كانت صورة احدى التظاهرات الشعبية مخبأة في غابة الصور ، لم ير الا زرا لسترة مدماة سقط صاحبها بين الجموع ، لم تستغرق تلك الصورة الا دقيقة واحدة ، وظلت الجموع تتابع سيرها ، واكثر ما كان يشقيه في تلك الصورة وجوه المتظاهرين الفضة ، في ذلك المساء ترك آلته ودخل معهم .

بغتة يقفز ، يبدأ في جمع كل الصور من على الحائط ، والخزانة، تحت السرير ، من الحمام ، والممر ، يجلب الاقلام الجديدة والقديمة، الالات والمنظار ، والملابس ، والاغلفة ، الكتب والصحف ، المجلات، المناديل ، والقطن ، وادوات التصوير . يقف في الوسط ، رجلا موثوقا به ، لا يطلب العفو من احد ، ويكل امر نفسه لنفسه ، لقد نجح في تمثيل هذه الصور ، وهو يعلم انه لن يعمر طويلا امامها ، فقد استمرت معارضه اسابيع ، وانتلقت الى كل عواصم العرب ، وحقق نجاحات خارقة ، وفي كل سفرة كان يودع صديقه يوسف قائلا له :

ـ لا تحزن طويلا اذا غبت الى الابد .

ظلت حروب العرب في ارض العرب ، مع العرب تضرب رأسه طويلا ، في عمان ، وظفار ، والاردن وارتريا . وراشيا الفخار ، تفصل لحظات نشوته ، وتدخله في الصحو ثانية ولاح في وجهه هدوء ، وبدأ بالابتسام في وجوههم جميعا .

وجوه البشر والمقاتلين ، المتظاهرين ، والبسطاء ، والدواب ، والعصافير ، الحيوانات والقرود ، والكلاب ، والاسود المستأنسه في الغابات ، والخيول ، والقطط ، والحشرات ، والنجوم ، والورود .

(هؤلاء الاحياء ، هؤلاء الاموات ، انا الحي ، الميت ، انني احبكم ، واكرهكم ، احبكم ، احبكم ، من يستطيع ان يطردني اليكم .)

ينظر اليهم مليا .

(يجب فك الحصار منكم)

يجلب زجاجة النبيذ ويسكب قليلا منه فوق السرير ، قطرات النبيذ تدخل اذن احدى الصور ، يضحك في السر .

(يسكر الان بأذنه)

يسكب كل القنينة ويخرج كبريتا ، ويبدأ باشعال كل شيء ، وهو ينظر الى هؤلاء . كانت النار تزحف ببطء الى كل الموجودات (هذه المرة لن تنجوا وحدكم)

يأخذ ورقة وقلما ، يبدأ بالكتابة ، لم تكن وصية ، ولا نعوة :

« عزيزي يوسف .

كم اود لو كانت معي الان اقلام ملونة ، لكتبت لك كل كلمة بلون احدى الصور ، فالالوان هنا متداخله ، الدم والنار والنبيذ ، والماء ، والرطوبة ، والزهور البرية ، وتعاليم المسيح وسليمان الحكيم غير كافية لتقبل هذا الوضع ، انني ارهق نفسي بالتذكر والتوجع لانني قريب من الحياة بشكل مرئي تماما ، انا لست بأسف لانني لا اجد احدا قادرا عل ىتصويري وانا في وضعي هذا ، لكني انتظر معارك اخرى كي اصرخ بانني كنت احاول ، احاول فقط ان اعيش منتصرا ، او مندحرا ، ليس هذا المهم الان ، مبجلا او منحطا ، او منافقا ، فهذا ما عاد له اهمية لي في الوقت الحاضر ، انني انظر الى تلك الاكوام من الجثث والذكريات ، والان لا ابدو مشرق الوجه ، اقول لك فقط ، استطيع الان الوقوف على قدمي ولعن معظم الفلسفات ، لا اريد الاصغاء الان الى تلك الانفاس الطيبة التي كانت من حولي في المخيمات او في برك الدم تلك ، والتي غطاها التراب والدم والمطر بجنون الحياة، لا بحماقة الموت ، انني مصغ الان الى تعاليم هؤلاء فقط ، فلستقط كل آلات التصوير ، فانا اكره ان يصورني احد وانا أموت ، يوسف سلاما . ارم قلمك والحق بي . »

وضع الخطاب في مظروف ، أغلقه بهدوء ، وضعه في جيبه وخرج مسرعا . لم يلتفت الى الوراء ، ولم يغلق الباب وراءه ، الا أنه نسي وضع الخطاب في صندق البريد .

اذار ٧٦ بيروت

دار الآداب تقدم

قصائد مهربة الى حبيبتي آسيا

للشاعر محمد علي شمس الدين

* « قصائد مهربة الى حبيبتي آسيا » لوحة فنيةمؤلفة من اربعة مقاطع يتكون فيها الرمز بمنظور تراثي عصري وواقعية جديدة وتجريد يجعل اللفظة الشعريةذات ابعاد وعمق . وحيث يتحول المجاز فيها الى خصوصية مونولوجية تتابع فيها الصور تتابعا عفويافيه براعة واصالة . وهو مجاز منغوم قائم على تعادلية صافية بين اللغة الشعرية في القصيدة وبين رصيدها الصوتي الموسيقي . فهو مرهف كالبكاء . وشمسه مزاجية وهواه ازرق ..

الدكتور عناد غزوان

* « قصيدة فاتحة للنار في خرائب الجسد » حشدغريب من رموز الرعب والنمزق والاحتراق . وفي هذا الحشد لا يعطينا الشاعر مجالا للتوقف لكي نعرف ما نحن فيه بل يسير بقوة دون توقف متهما مجموع الطبقات في اقتسام أشلاء العالم ، وبالمشاركة في جريمة انتهاك الانسان وتوزيع اشلاء جسده على بعضهم البعض . والقصيدة تظهر طاقة شعرية فريدة ، طاقةتترجم شعريا ، وعن فهم العصر الحاضر والتراث الانساني ، بكل البؤس واللاانسانية والتمزق المتواجد فيها .

صدر حديثاً

جبرا ابراهيم جبرا